الطّرق والمدن التّجارية في الصّحراء الكبرى خلال القرن التّاسع عشر

د. عبدالمولى علي محمد عمّار
قسم التاريخ – كلية الآداب
جامعة الزاوية

الملخَّص:

تناول اهم المدن التجارية والطرق المؤدية اليها موضحا اسباب شهرتها وعوامل تطورها وازدهارها.

ودورها في تنشيط وتعزيز الحركة التجارية بين مناطق شمال الصحراء وضواحيها ونتائج هده الحركة على الاقتصاد العالمي.

كما تطرق هذا البحث الى المشاكل التي كانت تواجهها التجارة في هذه المدن والطرق المؤدية اليها وكيفية الالتغلب عليها ، واشارت الى دوافع تقلص هده التجارة وانكماشها في اواخر القرن التاسع عشر.

Abstract

The research studied the most important commercial cities and the roads leading to them, explaining the reasons for their fame and the factors of their development and prosperity.

Also focused on importance of these cities in activating and strengthening trade movement between the regions of northern Sahara and its suburbs and the consequences of this movement on the global economy.

This research investigated the problems that faced the trade in these cities and the roads leading to them and how to overcome them, and the research explained the motives for the reduction and contraction of this trade in the late nineteenth century.

المقدّمة:

تعود العلاقات بين المناطق المحيطة بالصحراء الكبرى إلى فترة قديمة موغلة في القدم لاسيما الاقتصادية منها، وكانت العلاقات التجارية أقوى هذه العلاقات، فقد كانت قائمة على نطاق واسع، وكان لها الدور الفعّال في اقتصاد بلدان وهذه المناطق ومدنها.

لقد تشكلت في الصحراء الكبرى وعلى ضفتيها شبكة معقّدة، وتكوّنت أسواق ومدن وطرق تجارية تتلقى البضائع والسلع المحلية والمستوردة وتعيد تصديرها إلى المناطق المجاورة والبعيدة عنها، إنّ العامل الاساسي في تكوين هذه الأسواق والمدن هو النشاط التجاري الذي تسعى هذه الدراسة إلى إعطاء فكرة حوله، وإلقاءالضوء على أهميته في ازدهار المدن الصحراوية وربطها مباشرة بالمراكز الحضارية والتجارية شمال الصحراء الكبرى وجنوبها.

مشكلة الدراسة:

تركّز مشكلة هذه الدراسة في التحقق من فاعلية ودورها في نشأة مدن الصحراء الكبرى وتطورها فلم تكن لتظهر تلك المدن للوجود أو يسمع بها أحد لولا تجارة القوافل عبر هذه الصحراء، فهذه التجارة هي التي دعت الناس والتجارإلى عمارة هذه المدن والتوسع في عمرانها وأسواقها.

تساؤلات الدراسة:

من خلال ذلك يمكن طرح السؤالين التاليين:

س1– ما هي دوافع النشاط التجاري عبر الصحراء الكبرى؟ وما هو دوره ووسائله في تعزيز العلاقة بين الشمال والجنوب؟

س2– ما أهمية السلع والبضائع التي كانت تحملها القوافل الصحراوية جنوباً وشمالاً؟

أهمية الدراسة:

تستمد هذه الدراسة أهميتها من أنها تكشف دور التجارة وأهميتها في تطور المجتمعات القاطنة في الصحراء والمجاورة لها.

أهداف الدراسة:

تهدف دراسة موضوع هذا البحث إلى تحقيق الأهداف التالية:

1- معرفة أنواع السلع وقيمتها ودورها في تجارة العبور.
2- الاطلاع على المدن والطرق وإسهاماتها في تنشيط التجارة في الصحراء الكبرى.
3- كشف عوامل ازدهار هذه التجارة وإبراز دوافع تراجعها في نهاية القرن التاسع عشر للميلاد.

منهجية الدراسة:

اتبع في هذه الدراسة المنهج التاريخي الوصفي لملاءمته لطبيعة البحث وأهدافه.

المبحث الأول: السلع التجارية وأهميتها في التجارة عبر الصحراء:

أدى موقع شمال أفريقيا واتساع رقعته دوراً حيوياً فكان جسراً مهمّا لربط ووصل البلدان والأقاليم الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى بشواطئ البحر الأبيض المتوسط وبالبلاد الأوروبية ،وذلك لثروات تلك الأقاليم الافريقية في الشمال والجزيرة العربية وأوروبا مما كان له أثر كبير في تطور العلاقات الاقتصادية العالمية بين الشمال والجنوب طوال قرون موغلة في القدم.

وقد تأسست هذه العلاقات على التجارة الصحراوية واشتهرت لأهمية السلع المتاجر بها لكافة الأطراف ،فأقيمت طرق القوافل التي تصل أفريقيا الداخلية بالعالم لاسيما دول الشمال العربية منها والأوروبية.

ويمكن تقسيم السلع والبضائع العابرة للصحراء الكبرى إلى شمالية أي تأتي من شمال أفريقيا وأوروبا، وأخرى جنوبية كونها قادمة من أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، ومن أهم السلع التي اشتهرت بها أقاليم الجنوب والتي كانت تمثّل الصادرات الرئيسة عبر القوافل الصحراوية الذهب ،فهو من أهمّ وأوّل السلع التي جذبت التّجار وكان وراء تنشيط حركة التبادل التجاري في الصحراء حتى عُرِف أحد الطرق الذي يربط بين الشمال والجنوب باسم طريق الذهب[1]، وهو الطريق الغربي الذي يصل سلجماسة بغرب أفريقيا، وكانت كميات منه تصل إلى بقية المدن الصحراوية ومنها إلى المدن الشمالية على سواحل البحر الأبيض المتوسط، وعن طريقها وصل هذا المعدن الثمين إلى أوروبا ولفت أنظارها إلى مصادره الاساسية جنوب الصحراء الكبرى.

أمّا الرقيق فالتجارة بهم كانت رائجة ومربحة ذلك لأنهم يشكّلون طبقة الإنتاج الأولى في الشمال والجنوب ،حيث تقع على كاهلهم معظم الأعمال، وكانت أسواق جنوب الصحراء الكبرى عامرة بالرقيق وكانت أثمانهم منخفضة ممّا شجّع التّجار على شرائهم بأعداد كبيرة وبيعهم في أسواق الشمال الأفريقي وعلى السواحل إلى التجار الأوروبيين الذين يحملون إعداد كبيرة منهم إلى الجانب الآخر من البحر المتوسط[2].

ومن البضائع المهمة أيضاً العاج والجلود، إضافة إلى بعض الأسلحة كالرماح والخناجر والسيوف والدروع الجلدية والصحون الخشبية والأحذية والأمشاط والأكياس والحقائب وقِرَب الماء، وغيرها من البضائع ذات الطابع الأفريقي[3].

أمّا بضاعة الشمال وسلعه الواردة إلى مدن وأقاليم جنوب الصحراء الكبرى عن طريق القوافل التجارية فكان من أهمها الملح، وهو عند الأفارقة مادة اقتصادية عظيمة القيمة، وكان يتعاملون به كما يتصارفون بالذهب، فهو لذلك عزيز جدّاً عندهم لندرته في بلادهم، والتّجار يجلبونه من الشمال إلى المدن والأسواق الكبرى جنوبي الصحراء، حيث يوزّع في الداخل ،ولازدياد الطلب عليه في هذه الأسواق فقد ارتفعت قيمته الشرائية بصورة كبيرة ،ومثّل أغلى أنواع التجارة فيها لدرجة أن الذهب كان يقدر القوة الشرائية نفسهاالتي للملح، والمتاجرة به في هذه الجهات أقدم من المتاجرة بالذهب[4]، وأدت تجارته دوراً بارزاً في العلاقات بين الشمال والجنوب.

أمّا تجارة المنسوجات المختلفة فقد وجدت في الجنوب سوقا لها نتيجة لتقدم هذه الصناعة في بلاد مصر وشمال أفريقيا وأوروبا، وأصبحت المنسوجات سلعة ضرورية تحملها القوافل عبر الصحراء لسدّ الحاجات ؛ ولذلك كانت الأقمشة والثياب من أهم البضائع التي ترد مع القوافل من مصادره في الشمال، حيث كانت أكبر مراكز تجميع وتوزيع هذه السلعة في الأسواق الكبيرة، حيث كانت تمبكتو وجني وجاو من أكبرمراكزتجميع[5].

ووجدت أيضاً في هذه التجارة الأواني النحاسية والمصنوعات الحديدية، إضافة إلى البنادق والبارود[6].

كما كانت الكتب أهم سلع الشمال إلى الجنوب، وكانت مناطق تصديرها الرئيسة مصر وبلاد الغرب العربي، وكانت أثمانها مرتفعة واستطاع التجار أن يجنوا من هذه السلعة أرباحاً كبيرة، ويرجع ذلك إلى إقبال الأفارقة على التعليم والتعلم.

ومن المواد المتاجر بها أيضاً عبر الصحراء جنوبا أدوات الزينة والحُلي، التي كانت تجلب أكثرها من المغرب الأقصى، وقسم منها كان يجلب إلى المدن الساحلية من أوروبا وتُحمْل جنوباً بأنواعها المتعددة، وتحصّل التّجار من هذه الموادعلى أرباح طائلة لما وجدته من إقبال كبير بين الأفارقة ولاسيمابين الطبقات الميسورة[7].

المبحث الثاني: المدن التجارية الكبرى في الصحراء الكبرى:

قديماً ومنذ أن توطّدت العلاقات بين طرفي الصحراء الكبرى بفضل التجارة، ازدهرت العديد من المدن والواحات ،وتحولت إلى مراكز تجارية مزدهرة لوقوعها على الطرق التجارية التي تسير من شمال أفريقيا عبر الواحات الصحراوية إلى المدن والمحطّات التجارية التي تأسست قرب حافة الصحراء الجنوبية، وقد أصبحت هذه المدن مراكز تجارية كبرى تستقبل القوافل المنحدرة من مدن الشمال، كما تقدّم للمسافرين الطعام والماء، وكان لتوسيع رقعة العلاقات التجارية بين هذه المدن أثر كبير في توفير السلع المحلية والمستوردة، وأدّتّ أسواق هذه المدن دوراً بارزاً في التجارة الداخلية والخارجية حيث أصبحت تتحكم في مسار التجارة وتمويلها[8].

لاشك أنّه يصعب تحديد فترة تاريخية واضحة لبروز الدور التجاري لمدن وو الصحراء الكبرى وواحاتها ، إلا أنه من المؤكد أن الموقع كان باستمرار على علاقة مع الطريق الذي يربط جنوب الصحراء الكبرى بشمالها ،ويرتبط هذا الموقع بقدرته على تلبية الشروط الاساسية للتجارة عبر الصحراء، فهذه المدن برزت على وجه الخصوص بأسواقها التي يفد إليها التجار والأهالي من مختلف المناطق لسهولة النقل بينهما وأمان الطريق ومدى ارتباطها بمجموعة من الأسواق التجارية الكبرى التي تتجه إليها طرق القوافل الصحراوية، وأيضاً استتباب الأمن والأمان من مقومات ازدهار المدن الصحراوية فيقصدها التجار وأصحاب القوافل وهم مطمئنون، وهذه من العوامل الاساسية في تطوّرالنشاط التجاري ونموه[9].

أولاً- مدن الشمال:

1- مدينة سلجماسة:

تقع هذه المدينة جنوبي المغرب الأقصى على الطرف الشمالي للصحراء الكبرى، وتُعدّ من المراكز التجارية البارزة في تجارة قوافل العبور، فهي محطة انطلاقها وتحركها إلى غرب أفريقيا، وقد أتاح لها موقعها المحوري الربط بين مختلف مناطق شمال أفريقيا ومناطق جنوب الصحراء لاسيما الجهات الغربية منها، وزاد من أهمية هذه المدينة تنوع البضائع التجارية المتبادلة حتى عُدّت بمثابة واسطة العقد في تجارة القوافل لعلاقاتها الوثيقة بالموانئ التجارية في الشمال وبلدان غرب أفريقيا، فأغلب القوافل التجارية القادمة من الشمال والمتجهة جنوباً إلى أفريقيا أو العائدة منها تمر بسجلماسة.

وتشمل صادرات سلجماسة المواد الغذائية من تمر وعنب وملح، وكذلك على المواد المصنّعة من نسيج وحليّ وفخّار، وعلى مواد التجميل والتوابل والحنّاء والكحول والكمّون والقرنفل وكذا اشتملت هذه الصادرات على بعض الكتب والمخطوطات[10].

أما الواردات فهي متنوعة ،منها الجلود وريش النعام والحبوب و حبوب الذرة، إلا أن أهم الواردات تمثلت في سلعتي الذهب والرقيق، ويُعدّ الذهب من أولى السلع التي اشتهرت بها المدينة ،حتى عرف الطريق الذي يصل سلجماسة بغرب أفريقيا باسم طريق الذهب.

أمّا الرقيق فيُعدّ من السلع الأفريقية المهمة والرائجة في سلجماسة حيث يجلب التجار أعداداً كبيرة منهم ويبيعونهم في مدن الشمال وعلى السواحل إلى التجار الأوروبيين الذين يحملون أعداداً كبيرة منهم إلى الجانب الآخر من البحر الأبيض المتوسط[11].

2- بلدة تغازة:

تقع تغازة جنوبي المغرب بالقرب من المحيط الأطلسي على الطريق الرئيس للقوافل التجارية بين المغرب وتمبكتو، وكان لهذه البلدة دور كبير في تعزيز العلاقات التجارية بين الشمال والجنوب، فقد كانت سوقا ومحطة لعبور مجموعة من السلع التجارية كالأقمشة والسيوف والمرايا والكحل والبهارات والتمور والعطور والخيوط والإبر والنُّحاس والحديد وريش النعام والجلود والصمغ إضافة إلى العبيد[12].

أمّا السلعة الأهم التي اشتهرت بها تغازة فهي مادة الملح إذ يُعدّ من أهم السلع التي يجري تداولها في الصحراء، والمتاجرة به أقدم من المتاجرة بالذهب لشدة الحاجة إليه وندرة مصادره جنوب الصحراء الكبرى ،فالحاجة إليه ضرورية والمتاجرة به مربحة، علاوة على أنه

كان يمثّل عملةً صعبة يمكن أن يُشْتَرى بها جميع أنواع المنتجات والسلع بما في ذلك الذهب، لذلك كانت التجارة في الملح تجري في حركة واسعة النطاق للقوافل التجارية ما عاد على تغازة بثراء كبير وشهرة واسعة[13].

3- مدينة توات:

تأتي أهمية هذه المدينة من موقعها الحيوي جنوب شرق سلجماسة ولكونها واحة في وسط الصحراء ،فقد شكّلت حلقة وصل بين مناطق شمال أفريقيا وغربها، ومثلث محطّة مهمة للتجار، حيث يتم تزويدهم بما يلزم من غذاء وماء، وغالباً ما يتقدم تجار الشمال والجنوب بعرض بضاعتهم بها، وقد شجّع ذلك أهل هذه الواحة على ممارسة التجارة بشكل واسع ودرَّتْ عليهم الأموال الطائلة لأدائهم دور الوسيط

4- بلدة ورقلة:

تقع جنوبي الجزائر، وق أدَّتْ دوراً مهماً في تجارة الصحراء، حيث إنّ سلع الشمال تونس والجزائر والسلع الواردة إليهما كانت تمر بالضرورة بورقلة ؛لأن ذلك يسمح للتجار باختصار المسافة بالسفر مباشرة ما بين الشمال ووسط افريقيا، ومكّن ذلك تجار المدينة من أداء دور مهم في المقايضة السلعيةّ بين ضفتي الصحراء الكبرى فدرّت عليهم الأموال الطائلة، وأهم تلك السلع القمح والملح والسمن والأقمشة الصوفية والكتانية والبنادق والبارود من الشمال، والعبيد والريش والذهب والعاج والجلود من الجنوب[15].

5- مدينة غدامس:

تمتّد على أطراف الصحراء جنوبي غرب ليبيا في المثلث الحدودي مع تونس والجزائر، وقد نالت حظًّا من الذيوع والشهرة والثراء كمركز تجاري متقدم في تجارة القوافل بين الشمال والجنوب، ومثلّت أهم المعابر للقوافل التجارية منذ القدم وشكّلت محطّة كبرى لتجمّع وتوزيع القوافل التجارية، ومتلقى لتبادل البضائع بين دول الشمال الأفريقي وغرب ووسط أفريقيا، وذلك لتعدد شبكات الطرق التي تربطها بالصحراء الكبرى وبلدان الشمال والجنوب[16].

6- إقليم فزان:

إقليم واسع يمتد على كامل جنوب ليبيا، وفيه مدن تجارية كبيرة الأهمية في تجارة العبور، منها: أوجله وجالو وسبها وغات، ويتمتع هذا الإقليم بوفرة عيونه العديدة ومياهها العذبة.

كان لموقع فزان أثر كبير في أن يكون ملتقى لطرق القوافل التجارية الفرعية والرئيسة منها، وأصبح هو نفسه حلقة وصل ومركزاً رئيساً للعلاقات الاقتصادية الصحراوية، فغدت التجارة فيه نشطة، فكل سلع ومنتوجات الشمال الأفريقي والبضائع الأوروبية التي كانت تشحن من طرابلس وتونس ومصر إلى الجنوب، والقوافل التي كانت تحمل مصنوعات ومحصولات الجنوب إلى الشمال تمرّ كلّها بفزان[17].

لقد سهّل موقع إقليم فزان على القوافل التجارية عملية الاتصال والتبادل التجاري وعزّز الصلة بين الرحلات الوافدة من الشمال والجنوب، وقام تجار وسكان هذا الإقليم باستقبال القوافل وإرشادها عند المغادرة، وتوفير احتياجاتها من المياه والمؤن وغيرها من الخدمات[18].

ومن هنا يمكن القول أنه بفضل توسطها لطرق القوافل من الجهات الأربع، فزان دوراً حيوياً ونشطاً في الحركة الاقتصادية المنسابة عبر الصحراء الكبرى نحو الشمال والجنوب.

وعليه فإن النشاط التجاري والثروة الطائلة التي توفرت لإقليم فزان تعود إلى الدور الذي كان يقوم به هذا البلد بوصفه مستودعا ومحطة تجارية بين بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط وأفريقيا الوسطى، والمناطق التي تمدد بين نهري النيل والنيجر.

ثانياً- مدن الجنوب:

1- مدينة تمبكتو:

تقع على الأطراف الجنوبية للصحراء الكبرى بالقرب من منحنى نهر النيجر، وقد حظيت بأهمية اقتصادية كبيرة لموقعها المتميز الذي جعل منها سوقا واسعة ترد إليه القوافل والبضائع من شمال أفريقيا ومدن غرب ووسط أفريقيا، وأتاح لها موقعها بالقرب من نهر النيجر أن استفادت من النقل النهري في نقل السلع والبضائع بالقوارب، فكانت عادة ما

تصلها بضائع بلدان الشمال العربية والأوروبية، ومنها تنقل إلى مراكب راسية في النهر وتنقله عبره بواسطة هذه المراكب إلى أقاليم ومدن الدواخل الأفريقية.

وهكذا كان ازدهار تمبكتو قد جاء أساسياً من تجارة العبور لكافة المنتوجات والبضائع المحلية والأفريقية وسلع الشمال الأفريقي والدول الأوروبية ،وهكذا مثلت تمكبتو سوقا ومحطّ تجار من بلدان مختلفة ،فكانت بلاداً مختلطة يعيش فيها البيض والسود[19].

2- مدينة جاو:

تقع جاو جنوب شرق تمبكتو وقد مثّلت سوقاً لكافة مدن جنوب الصحراء الكبرى، فكانت القوافل الصحراوية تعرج عليها قبل الذهاب إلى تمبكتو، وقد أدّت دوراً حيوياً في انتعاش العلاقات التجارية بين الشمال والجنوب، فقد كانت مشهورة، وأسواقها معمورة يؤمها الكثير من التجار، فأدت دوراً مهماً في تسهيل وتنشيط انتقال البضائع بين دواخل أفريقيا وبين ضفتي الصحراء الكبرى، فكسبت المدينة وتجارها أموالاً طائلة نتيجة القيمة الربحية في مجال المبادلات التجارية الكبرى التي تتم بجاو بين التجار الأفارقة وتجار شمال أفريقيا[20].

3- بلدة بيلما:

توجد جنوب الصحراء الكبرى في موقع متميز تتقاطع عنده طرق القوافل التجارية القادمة من وسط أفريقيا ودواخلها وبلاد شمال الصحراء، ما جعل منها سوقاً تجارياً نشطاً تربط بين أسواق الشمال والجنوب الأفريقيين، وقد اشتغل سكان بيلما هذه الحركة بذكاء ومهارة، فمارسوا التجارة على نطاق واسع، فازدهرت تجارتهم وانتعش اقتصاد مدينتهم[21].

4- مدينة النجيمي:

تمتد النجيمي على ضفاف بحيرة تشاد شمالاً، ومثّلت تجارة العبور الركيزة الاساسية لاقتصادها، فعندها ينتهي الطريق الشرقي الهابط من مصر، وهي من كبرى محطات القوافل في هذه الجهات، ذلك أن موقعها على ملتقى طرق القوافل التجارية بين أقاليم غرب وشرق أفريقيا وبين شمالها، فمنها تنطلق السلع والبضائع الأفريقية إلى الشمال، ومنها توزّع بضاعة الشمال في شتى ربوع أفريقيا السوداء، ولموقع النجيمي التجاري فقد ازدهرت مؤسساتها التجارية وجنت أموالاً طائلة كون التجارة موردًا كبيرًا للربح[22].

المبحث الثالث: طرق قوافل التجارة العابرة للصحراء الكبرى:

اشتهرت طرق عدة للقوافل كانت تبدأ من مراكش وتلمسان وتونس وطرابلس ومصر متجهة نحو الجنوب فتجتاز الصحراء وتصل إلى المدن الرئيسة في الجنوب، مثل: تمبكتو وجاو وبلما وجرمي، وأصبحت هذه المدن وغيرها مشهورة وكانت فيها أسواق مشهورة يؤمها الكثير من الناس والتجار[23]، وأصبحت هذه المدن بمثابة موانئ التصدير تستقبل القوافل من الشمال والجنوب، وكان على هذه القوافل أن تؤدي مكوسماعن مرورها أو دخولها إلى أسواق وأراضي جنوب الصحراء، إضافة إلى حقوق متساوية تؤدي في المناطق الشمالية[24].

وقد برزت أهمية ثلاثة مسالك للقوافل الصحراوية هي:

1- المسالك الغربية من الصحراء الكبرى، وهي التي ربطت المغرب الأقصى جنوباً.
2- المسالك الوسطى من الصحراء الكبرى، وهي التي ربطت المغرب الأوسط (الجزائر وتونس) جنوباً.
3- المسالك الشرقية، وهي التي ربطت ليبيا ومصر ببلاد جنوب الصحراء الكبرى[25].

وتفرّعت عن هذه المسالك العديد من طرق القوافل التجارية، من أهمها:

1- من فأس إلى سلجماسة إلى ولاته ، و تمبكتو ، و جنى ، و جاو.
2- من تلمسان إلى توات ثم تمبكتو.
3- تونس – واحة جربة إلى ورقلة غدامس تمبكتو ، و جاو.
4- من القيروان إلى غدامس ، و غات ، و بلما.
5- من طرابلس إلى غدامس وفزان وينتهي إلى برنو وجاو.
6- من مصراتة إلى واحة سيو ، و زويلة ، و تمبكتو ، و جاو[26].
7- من بنغازي إلى أجدابيا ثم أوجلة ثم الكفرة إلى الفاشر.
8- طريق القاهرة – النجيمي ، و برنو ، و تمبكتو.

عن طريق هذه الطرق التجارية تكوّنت على ضفتي الصحراء الكبرى علاقات قوية، وعبرها أيضاً تم استيراد البضائع الأوروبية عن طريق موانئ شمال أفريقيا، وعن طريقها أيضا تصدر السلع الأفريقية إلى أوروبا.

لقد كانت القوافل التجارية تجهّز في المدن الكبرى، ويتراوح عدد جمال القافلة الواحدة بين ألف وثلاثة آلاف جمل محمل بمختلف البضائع[27]، وتستغرق الرحلة في ذهابها وإيابها فترة طويلة تمتد إلى عدة أشهر.

وتتعرض القوافل أثناء ميسرتها إلى بعض المشاكل ،منها:

1- اعتداءات اللصوص وقطّاع الطرق.

2- إجبار أصحاب القوافل على دفع ضريبة المرور للقبائل التي تمرّ القوافل عبر أراضيها.

ولتفادي هذه المشاكل كان على أصحاب القوافل اتخاذ أدلاّء ملمّين بمشاكل الطرق وكيفية تفادي قطّاع الطرق، وكذلك إرشاد القافلة إلى أماكن وجود المياه[28].

إن الطرق التجارية العابرة للصحراء الكبرى وتلك المتفرعةّ من محطاتها الرئيسة وحركة الناس والبضائع عليها وما ترتب على ذلك من نشاطات اقتصادية واجتماعية كانت وراء بروز العديد من المدن الرئيسة التي ترسّخت باستمرار أهميتها لهذه الحركة التجارية.

ولكن هذا الحال أخذ يتغيّر شيئاً فشيئاً منذ أواخر القرن الثامن عشر حيث أشتد التنافس بين الدول الأوروبية الكبرى حول المناطق الداخلية لأفريقيا بعد أن كانت قد رسّخت أقدامها على الشواطئ منذ أكثر من قرنين، ونتيجة لجهود كبيرة فقد تمكّنت فرنسا من التوسّع في غرب أ فريقيا ووسطها ،وذلك في نهاية القرن التاسع عشر[29].

إنّ هذه المناطق كانت تمثّل العمق الاستراتيجي والتجاري للمرافئ الواقعة على شواطئ البحر المتوسط، وفي هذا الإطار عمل الفرنسيون على اتخاذ بعض الإجراءات لتحويل التجارة عبر الصحراءإلى مناطق نفوذهم، وعن طريق الترهيب والترغيب تمكّنت من إقناع زعامات قبليّة من الطوارق لتقديم ضمانات لتأمين سلامة القوافل التي تمرّ عبر أراضيهم باتجاه مناطق النفوذ الفرنسي في الجزائر[30].

كما تمكّن الفرنسيون من توقيع معاهدة مع شيوخ الطوارق في غدامس التزموا فيها بحماية ومساعدة الفرنسيين في توجههم نحو جنوب الصحراء وفي تنمية تجارتهم بالمنطقة، أي ربط الاتصالات مع تجارة الصحراء وبلاد ما وراء الصحراء[31].

وهكذا بدأت التجارة عبر الصحراء تتقلص وتشهد اضطرابات بسبب التدخّل الأوروبي السافر في القارة الأفريقية، وأيضاً بسبب التقدم العلمي والصناعي لصالح البحار

والمتاجرة عن طريق مراكبه الضخمة التي قضت نهائياً على التجارة عبر الصحراء في أوائل القرن العشرين.

الخاتمـــة

من خلال دراسة موضوع هذا البحث يمكن استخلاص نتائج عدة أهمها:

1- كان الدافع الرئيس للحركة التجارية النشطة في الصحراء الكبرى وعلى أطرافها هو الحاجة الملحة للسلع والبضائع المتوفرة في الطرف الآخر من الصحراء الكبرى.
2- كانت أهم سلع الشمال تتمثل في الملح والمنسوجات والأواني الفخارية والمصنوعات الحديدية والكتب وأدوات الزينة والحلي. أما سلع الجنوب فكان من أهمها الذهب والرقيق وريش النعام والعاج والجلود.
3- إن ازدهار المدن الصحراوية وتطورها يعود أساسا إلى تجارة العبور التي وفّرت لهذه المدن الحركة والنشاط والعمران البشري والمادي.
4- استطاعت المدن والطرق التجارية في عمق الصحراء توفير متطلبات واحتياجات مناطق حوض البحر المتوسط وأقاليم جنوب الصحراء من المواد والبضائع والسلع النادرة والأساسية في تلك المناطق.
5- نتج عن الحركة الاستعمارية لأفريقيا القضاء على التجارة العابرة للصحراء الكبرى بشكل تدريجي منذ أوائل القرن الـ19م .

هوامش البحث

1- احمد الياس حسين، سلع التجارة، مجلة البحوث التاريخية، العدد الثالث، يناير، 1981م، طرابلس، ص204.
2- عبدالقادر زبادية، مملكة سنغاي في عهد الأسبقين، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت، ص225.
3- نفس المرجع والصفحة.
4- الحسن الوزان، وصف أفريقيا، د.ت، الرياض، ص244.
5- المصدر نفسه والصفحة ذاتها.
6- المصدرنفسه والصفحة ذاتها.
7- عبدالقادر زبادية، مرجع سابق، ص242.

8- إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م، ص93.

9- المصدرنفسه ، ص84.

10- الحبيب الجنحاني، المغرب الإسلامي – الحياة الاقتصادية والاجتماعية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الدار التونسية للنشر، تونس، 1977م، ص176.

11- المصدرنفسه والصفحة ذاتها.

12- إسماعيل العربي، مرجع سابق، ص84.

13-المصدر والصفحة ذاتها.

14-السر سيد أحمد العراقي، تجارة القوافل بين شمال وغرب أفريقيا وأثرها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، المنظمة العربية التربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1984م، ص79.

15-حسن الوزّان، مصدر سابق ص508.

16- إبراهيم فخار، تجارة القوافل في العصر الوسيط ودور التجار الليبيين في حضارة الصحراء الكبرى، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1984م، ص59.

17- عبدالقادر جامي، من طرابلس الغرب إلى الصحراء الكبرى، ت: محمد الأسطى، دار المصراتي للطباعة والنشر والتوزيع، طرابلس، 1974م، ص93.

18- إبراهيم فخار، مرجع سابق، ص57.

19-إسماعيل العربي، مرجع سابق ، ص85.

20- حسن الوزّان، مصدر سابق، ص544.

21- إبراهيم فخار، مرجع سابق، ص50.

22- عبدالرحمن محمد الماحي، مساهمة القوافل التجارية في نشر اللغة العربية والحضارة الإسلامية في منطقة الساحل الإفريقي، أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الأفريقية على جانبي الصحراء، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1998م، ص66.

23- السر سيد أحمد العراقي، مرجع سابق، ص150-151.

24- إبراهيم حركات، دور الصحراء الكبرى في التبادل والتّسوق خلال العصر الوسيط، مجلة البحوث التاريخية، مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، سنة 3، العدد 1، 1981م، ص30.

25- أحمد إلياس حسين، طرق التجارة في الجزء الشرقي من الصحراء الكبرى، سلسلة الدراسات المترجمة، مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، طرابلس، 1979م، ص211.

26- الشيخ الأمين عوض الله، العلاقات بين المغرب والسودان الغربي في عهد السلطتين الإسلاميتين مالي والسنغال، دار المجمع العلمي ، جدة، 1979م، ص258.

27- المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

28- يحيى بوعزيز، دور طرق القوافل التجارية بالصحراء الكبرى كما وجدها الأوروبيون خلال القرن التاسع عشر، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1984م، ص131.

29- حول التوسع الأوروبي في أفريقيا ينظر: هنري وسلنغ: تقسيم أفريقيا 880-1914، ت ريما إسماعيل، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراته، (د.ت)، ص30 وما بعدها.

30- نيكولاي ابليتش، تاريخ ليبيا في العصر الحديث، ت: عماد حاتم، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 1991م، ص309.

31-المصدر نفسه، ص311.